الـكتاب الأول

مذهب الصنعة

الفصل الأول

الصنعة فى النثر الجاهلى

١

النثر الجاهلى

النثر هو الكلام الذى لم يُنْظَمْ فى أوزان وقواف ، وهو على ضربين : أما الضرب الأول فهو النثر العادى الذى يقال فى لغة التخاطب ، وليست لهذا الضرب قيمة أدبية إلا ما يجرى فيه أحياناً من أمثال وحِكَم ، وأما الضرب الثانى فهو النثر الذى يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة ، وهذا الضرب هو الذى يُعنَى النقاد فى اللغات المختلفة ببحثه ودَرْسه وبيان ما مرَّ به من أحداث وأطوار ، وما يمتاز به فى كل طور من صفات وخصائص ، وهو يتفرع إلى جدولين كبيرين ، هما الخطابة والكتابة الفنية — ويسميها بعض الباحثين باسم النثر الفنى — وهى تشمل القَصَص المكتوب كما تشمل الرسائل الأدبية المحبَّرة ، وقد تتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة .

ومن يرجع إلى العصر الجاهلى وأخباره يجد هذا الضرب الأخير من النثر يلعب دوراً مهماً فى حياة العرب حينئذ ، إذ كان عرب الجاهلية مشغوفين بالتاريخ والقصص عن فرسانهم ووقائعهم وملوكهم ، يقطعون بذلك أوقات سَمَرهم فى الليل وحول خيامهم ، وقد دارت بينهم أطراف من أخبار الأمم المجاورة لهم ممتزجة بالخرافات والأساطير ، فى السيرة النبوية أن النَّضْر بن الحارث المكى كان يقص على قريش أحاديث عن أبطال الفرس أمثال رُسْتَم وإسْفِنْدِيار[1] وأكثر ما كان يستهويهم من القصص أحاديث قُصَّاصهم عن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (طبع الحلبى) ٦٩/١ .

أيامهم وحروبهم فى الجاهلية ، مما يصوره لنا كتاب شرح النقائض لأبى عبيدة وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى وقد تلاهما اللغويون والأدباء يعنون بتلك الأيام والحروب عناية واسعة[١] على نحو ما هو معروف عن ابن عبد ربّه فى « العقد الفريد » وابن الأثير فى الجزء الأول من كتابه « الكامل » والميدانى فى الفصل التاسع والعشرين من كتابه « مجمع الأمثال » .

وينبغى أن لا نعلّق أهمية تاريخية أو أدبية على هذا القصص ، فإن الرواة حرّفوا فيه كثيراً قبل أن يأخذ شكله النهائى عند أبى عبيدة وغيره من مؤلفى العصر العباسى . وتوضّح ذلك توضيحاً تامّاً قصةُ الزبّاء ملكة تدمر ببادية الشام فى القرن الثالث الميلادى ، وهى تلك القصة التى رويت فى الكتب العربية عن هشام بن محمد الكلبى[٢] ، والتى تزعم أنها بنت عمرو بن الظرب العملقى وأن حروباً نشبت بينه وبين جذيمة الأبرش ملك الحيرة وتنوخ انتهت بقتل عمرو ، فاحتالت بنته الزباء على جذيمة ، حتى قدم عليها فقتلته ، وخلفه ابن أخته عمرو بن عدى ، فاحتال بمساعدة أحد أتباعه — ويسمى قصيراً — حتى انتقم منها فى مدينتها التى بنتْها على الفُرات ، بأن حمل إلى حِصْنها رجالا فى جواليق أو صناديق ، وفتحتْ له الحصن ، وهى تظنه يحمل بعض عُروض التجارة ، وخرج الرجال من الجواليق ، فقتلوها واستولوا على المدينة . وهى أسطورة لا تتفق فى شىء ووثائق التاريخ الرومانى الصحيحة عن الزباء أو كما يسمونها زنوبيا Zenobia زوج أذينة الذى قُتل غدراً . وقد نشرت سلطانها على العراق والشام ومصر وآسيا الصغرى ، وصارعت الرومانَ صراعاً عنيفاً ، حتى تصدى لها « أورليان » وانتصر على جيوشها وحاصر حاضرتها تدمر . وطال الحصار ويئست من النصر فحاولت الفرار ولكن جنوده تعقبوها وأسروها ، وأخذها معه أسيرةً إلى روما حيث قضت بقية أيامها[١] .

---

(١) انظر الفن الأول من المقالة الثالثة فى الفهرست لابن النديم .

(٢) راجع الأغانى ١٦/٧٠ وابن الأثير (طبعة ليدن) ١/٢٤٧ وابن خلدون (طبعة بولاق — ١٩٥٣) ٣/٩٩ وما بعدها .

(٣) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على (طبع بغداد) ٢٢/٤٥ .

وكأن لا علاقة بين شخصية زنوبيا التاريخية وشخصية الزباء فى القصة العربية ، فقد غُيِّرتْ فى القصة جميع المعالم التاريخية ، حتى مدينتها تدمر وضع القصاص مكانها مدينتين بنتهما على الفرات ، وحتى اسمها وهو « زنوبيا » حُرِّف إلى الزباء ، وقد جلبوا جذيمة من الحيرة ليحلّ محل زوجها أذينة الذى قُتل غدراً .

وإذا كنا لا نستطيع أن نعتمد على هذا القصص فى حوادث التاريخ فأولى لنا أن لا نعتمد عليه فى وصف صورة النثر الجاهلى وبيان خصائصه الفنية ، لأنه لم يُكْتَبْ فى العصر الجاهلى ولا فى عصر قريب منه ، وإنما كُتب فى العصر العباسى . ومن أجل ذلك كنا لا نستطيع أن نعتدّ — من الوجهة الأدبية — بما يروى عن هذا العصر من عناصر القَصَص والتاريخ ، لأن الرواة حرَّفوا لفظه ، بل لقد حرفوا معناه على نحو ما حرفوا قصة زنوبيا أو بنت زباى وأخبارها . ولو أن العرب كتبوا تاريخهم وقصصهم فى العصر الجاهلى لاعتددنا بهذا اللون من نثرهم ، ولكنهم لم يكتبوا منه شيئاً . أما ما يرْوَى عن هشام بن محمد الكلبى من أنه رأى فى بِيَع الحيرة بعض مدونات استخرج منها أخبار العرب[1] فإننا لا نستطيع الاعتماد على روايته لأنه متهمٌ فى كثير مما يرويه[2] ، وحتى لو صحت روايته فأغلب الظن أن ما شاهده من تلك المدوّنات لم يكن مكتوباً بالعربية ، إنما كان مكتوباً بالسريانية التى كانت شائعة فى الحيرة قبل الإسلام[3] .

والحق أنه لا يوجد تحت أيدينا دليل مادى على أن العرب تركوا فى العصر الجاهلى مدونات تاريخية أو أدبية ، وليس معنى ذلك أن الخطّ العربى لم يكن قد نشأ ، فالنقوش المكتشفة حديثاً تؤكد أنه تمّ تكونه فى الحجاز منذ القرن السادس الميلادى ، ومنها انتشر فى بعض البيئات الصحراوية ، وقد جاء الإسلام

---

(١) انظر الطبرى (طبع ليدن) : القسم الأول ص ٧٧٠ . ١٠/٤٠ .

(٢) أغانى (طبع دار الكتب المصرية)

(٣) أصل الخط العربى لخليل ذامى ص ٤ .

وفى مكة سبعة عشر كاتباً [١] ، وفى المدينة أحد عشر [٢] ، وكان بين البدو من يعرف الكتابة مثل أكثم بن صيفى [٣] حكيم تميم وخطيبها ، وكان ابن أخيه حنظلة بن الربيع من كُتّاب الرسول صلى الله عليه وسلم [٤] . ومن الشعراء المتبدين الذين اشتهروا بمعرفة الكتابة فى هذا العصر المرقّش الأكبر [٥] وهو من بكر ، ولَبيد [٦] بن ربيعة وهو من بنى عامر بن صعصعة . ولعل من الدليل على شيوع الكتابة بين البدو أننا نجد شعراءهم يصفون الأطلال كثيراً بنقوش الكتابة ، يقول المرقش فى فاتحة قصيدة له معروفة [٧] :

الدارُ قَفْرٌ والرسومُ كما ... رَقَّشَ فى ظهر الأديم قلمْ

ويقول لبيد فى مطلع معلقته :

عَفَتِ الديارُ محلُّها فمقامها ... بمنًى تأبَّد غولها ورجامُها [٨]

فمدافعُ الريّان عرِّىَ رسمُها ... خَلَقاً كما ضَمِنَ الوحىَّ سِلامها [٩]

والوُحِىّ : الكتابة ، والسِّلام : الحجارة البيض والعظام التى كانوا يكتبون عليها ، وكانوا يكتبون أيضاً فى الأدَم أو الأديم الذى مرّ عند المرقش وهو الجلد المدبوغ ، كما كانوا يكتبون فى عُسُب النخل . ويستمر لبيد فى معلقته فيقول :

وجلا السيولُ عن الطلول كأنها ... زُبرٌ تُجدّ متونَها أقلامُها

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى (طبعة أوربا) ص ٤٧١ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٧٣ .

(٣) مجمع الأمثال للميدانى (طبعة المطبعة الخيرية) ٢/٨٧ وقارن بما جاء فى عيون الأخبار لابن قتيبة (طبعة دار الكتب) ١/٤٢ .

(٤) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى ص ٢١٢) .

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبع ليدن) ص ١٠٤ .

(٦) أغانى (طبعة الساسى) ١٤/٩٠ .

(٧) المفضليات (طبعة لايل) ص ٤٨٥ .

(٨) عفت : أرست ومحت . تأبد : أقفر وتوحش . محلها ومقامها ومنى وغولها ورجامها : أسماء مواضع .

(٩) مدافع الريان : موضع . خلقا : بلى ودروساً . الرسم : آثار الديار .

والزبر : الكتب . ويقول الأخنس بن شهاب التغلبي [١] :

لإبنة حِطّانَ بنِ عَوْفٍ منـازلٌ كما رقّش العنوان فى الرَّقّ كاتبُ

والرق : الجلد الرقيق ، ويقول سلامة بن جندل الفارس المعروف [٢] :

لمن طللٌ مثل الـكتاب المنمَّـق خلا عَهْدُه بين الصُّلَيْبِ فُطْرِقِ

وقد ردَّد شعراء البادية هذه الصورة كثيراً فى شعرهم [٣] . وما من ريب فى أن ذلك يؤكد أن الكتابة كانت معروفة فى العصر الجاهلى ، ولكن هذه المعرفة شىء وأن العرب أحدثوا بها آثاراً فنية مكتوبةً شىءٌ آخر. هم عرفوها ، ولكنها معرفة محدودة ، فلم يكتبوا بها كتباً ولا قصصاً ولا رسائل أدبية ، وإنما كتبوا بها بعض أغراض تجارية وأخرى سياسية ، ولذلك لم يكن غريباً أن تشيع فى مكة لأنها كانت مركزاً تجارياً عظيماً . ويحدثنا الجاحظ أنهم كانوا يكتبون بعض عهودهم السياسية ، وكانوا يسمون تلك العهود المكتوبة « مهارق »[٤] وقد جاء ذكر هذه المهارق فى معلقة الحارث بن حِلِّزة مشيراً بها إلى ما كُتب من عهود بين بكر وتغلب ، إذ يقول :

واذكروا حِلْفَ ذى المجـاز وما قُـ ـدِّمَ فيـه العهودُ والكُفَلاءُ
حذرَ الجورِ والتعدِّى وهـل يَنْـ ـقضُ ما فى المهـارق الأهـواءَ

وإذاً فالعرب استخدموا الكتابة فى العصر الجاهلى لأغراض سياسية وتجارية ، ولكنهم لم يخرجوا بها إلى أغراض أدبية خالصة تتيح لنا أن نزعم أنه وُجد عندهم لون من ألوان الكتابة الفنية . ومن المؤكد أن الكتابة لم تكن حينئذ تؤدِّى بجانب أغراضها السياسية والتجارية أغراضاً أدبية أو فنية من تجويد وتحبير ، إذ لم تكن أكثر من كتابة ساذجة أدَّتْ أغراضاً خاصة فى عصرها ، وانتهت بانتهاء هذا الغرض .

ومما لاشك فيه أنه لا يوجد تحت أيدينا وثائق نستطيع أن ندَّعى بها أن

---

(١) المفضليات ص ٤١٠ .
(٢) المفضليات ص ٥٦٠ .
(٣) المفضليات ص٢٦٣ وص٥٥٩ ومابعدها .
(٤) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ١/٦٩.

الجاهليين عرفوا الكتابة الفنية . إنما الذى نستطيع أن ندعيه لهم حقًّا — عن طريق الوثائق الصحيحة — هو الأمثال ، فقد أكثروا من ضَرْبها ، وهناك كتب مشهورة تتخصص ببحثها . وبجانب الأمثال نعرف أنه كان لهم خطابة وخطب كثيرة . وقد أخذت الخطابة عندهم صورتين : صورة اجتماعية عامة فى منافراتهم ومفاخراتهم ومجامعهم وأسواقهم وحروبهم ، وصورة خاصة فى سجع الكُهَّان وما كان ينزلق على ألسنتهم أثناء تكهنهم .

وقد سلمتْ لنا طائفة واسعة من الأمثال تناقلتها أجيالهم والأجيال التى تلتها فى الإسلام مما أتاح لها أن تحتفظ بصورتها الجاهلية ، ومعروف أن الأمثال لا تتغير بل تظل طويلا على هيئتها التى صيغت عليها . وأما الخطابة وسجع الكهان فضاعت نصوصهما إلا قليلا جدًّا ، إذ بقيت بعض قطع وبعض صيغ منثورة فى ثنايا الكتب التاريخية والأدبية . وما دمنا بصدد درس النثر الجاهلى فلا بد من تعقب هذه الفروع الثلاثة من الأمثال والخطابة وسجع الكهان ، لنرى — بمقدار ما تُسعفنا النصوص — ما أتيح لكل منها من صناعة فنية وبراعة أدبية .

٢

الأمثال الجاهلية

خلَّفَ لنا عربُ الجاهلية تراثًا كبيراً من الأمثال ، وهى عبارات تُضْرَبُ فى حوادث مشبهة للحوادث الأصلية التى جاءت فيها ، وقد عُنى علماء العصر العباسى بدراستها . وممن سبق إلى ذلك المفضَّل الضبىّ وأبو عبيدة ، ثم خلَفَ من بعدهما خَلْفٌ أشهرهم أبو هلال العسكرى فى كتابه « جمهرة الأمثال » والميدانى فى كتابه « مجمع الأمثال » وهو يقول فى مقدمته إنه رجع فى تأليفه إلى ما يربو على خمسين كتاباً . وقد دَرَجَ من ألَّفوا فى الأمثال على أن يرتبوها حسب

حروفها الأولى على نحو ما ترتّب المعاجم ألفاظها ، ولذلك نراهم يوزعونها عادة على تسعة وعشرين باباً بعدد أبواب الحروف الهجائية . ثم بعد هذا التوزيع يفسّرونها ويقصّون أحياناً حوادثها التى جاءت فيها معتمدين — غالباً — على الظن والتخمين . مما جعل نيكلسون يذهب إلى أن قيمة الأمثال محدودة بالنسبة إلى العصر الجاهلى[١] . وحقاً ما يذهب إليه ، فقد طال العهد بين العصر الجاهلى وعصر هؤلاء المفسرين . وإنه لينبغى أن نثنى على صنيعهم ، ولكن مع شىء من الحذر فى الأخذ بتفسيرهم وقصصهم وما يحكونه من أخبار ، مادمنا نتهم القَصَص الجاهلى وما نُسب إلى عرب الجاهلية من أخبار وأحداث.

ومعروف أن المثل لا يتغيّر ؛ بل يجرى كما جاء على الألسنة ، وإن خالف النحو وقواعد التصريف ، فقد جاء فى أمثالهم : أعْطِ القوس باريها[٢] بتسكين الياء فى باريها ، والأصل فتحها ، وجاء أيضاً فى أمثالهم : « أجْناؤها أبناؤها » جمع جان وبان ، والقياس الصرفى : جناتها بُناتها لأن فاعلا لا يجمع على أفعال . وتقول : الصيفَ ضَيّعتِ اللبن[٣] بكسر التاء إذا خوطب بها المذكر والمؤنث والاثنان والجمع . ومعنى ذلك أن المثل لا يغيّر وأنهم يستجيزون فيه ما لا يستجيزون فى سائر الكلام .

وينبغى أن نلاحظ أن بعض الأمثال مبهم غامض ، لا يفهمه سامعه أو قارئه إلا إذا رجع إلى كتب الأمثال يستعين بها فى شرح المراد منه ، من ذلك قول العرب : « بعَيْنٍ ما أرينَّك » فإن معناه أسرعْ ، وهو معنى لا يفهم من اللفظ بتاتاً ، وقد علق عليه أبو هلال العسكرى بقوله : « هو من الكلام الذى قد عُرف معناه سماعاً من غير أن يدلّ عليه لفظه »[٤] . ومن هذه الأمثال الغامضة ما اضطرب الشرّاح فى تفسيره على نحو ما نجد فى هذا المثل : « لا يَعرف

---

(١) Nicholson, A Literary History of the Arabs, 1930, p. 31.

(٢) أى استعن على عملك بأهل الحذق والمهارة

(٣) يضرب هذا المثل فى طلب الحاجة بعد فوت أوانها .

(٤) جمهرة الأمثال للعسكرى على هامش مجمع الأمثال للميدانى ١/١٦٨ .

الهِرَّ من البِر» . فقد ذكر بعضهم أن الهر : السنور ، والبر : الفأرة فى لغة ، وقال بعض علماء الكوفة معنى المثل : لا يعرف من يَهُرُّعليه (يكرهه) ممن يبره ، وقال آخرون : الهر : دُعاء الغنم ، والبر : سَوْقها[١] . على أن هذه الأمثال الغامضة قليلة ، أما الكثرة فواضحة بينة .

وقد أكثر العرب من صنع الأمثال وضَرْبها فى جميع أحداثهم وشئون حياتهم ، وكثيراً ما كانوا يسوقونها فى خطابهم ، يقول الجاحظ : « كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدةَ أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع »[٢] فقد أودعوها تجاربهم ، فاتسمت بالقبول وشاعت بالتداول ، على شاكلة قولهم :

أىُّ الرجل المهذبُ — إياك أعنى واسمعى يا جارة [٣] — تجوع الحرة ولا تأكل بثَدْيَيْها [٤] — رب عجلة تَهَبُ رِيْثاً [٥] — رمتْنى بدائها وانسلَّتْ — لا تعدم الحسناء ذاماً [٦] ، لكل جواد كَبْوة ولكل صارم نَبْوة — مَقْتَلُ الرجل بين فَكَّيْه [٧] — المقدرة تذهب الحفيظة [٨] — من سلك الجدَد [٩] أمن العِثار — أسمعُ من فرس فى غَلَس [١٠] — إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد — الحرُّ حُرٌّ وإن مسَّه الضر — إنما المرء بأصْغريه : قلبه ولسانه — أسمع جَعْجَعَةً ولا أرى طحناً [١١] — من أجدبَ انتجع [١٢] — ويل للشجىِّ من الخَلىِّ [١٣] — من استرعى الذئب

---

(١) المزهر للسيوطى (طبعة الحلبى) ١/٥٠٠

(٢) البيان والتبيين للجاحظ (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/٢٧١ .

(٣) يضرب فى التعريض بالشىء يبديه الشخص وهو يريد غيره .

(٤) لا تأكل بثديها : أى بثمن لبن ثديها . يضرب فى صيانة الرجل الحر نفسه عن المكاسب الخسيسة .

(٥) الريث : البطء . أى رب عجلة تلق صاحبها فى بطء فتفوته حاجته .

(٦) الذام : العيب .

(٧) بين فكيه : أى فى لسانه وما يأتى به من الكلام .

(٨) الحفيظة : الغضب . يضرب فى العفو عند المقدرة .

(٩) الجدد : الطريق الواضحة .

(١٠) الغلس : الظلام .

(١١) الجعجعة : صوت الرحى ، والطحن : الدقيق .

(١٢) انتجع : طلب الكلأ فى مواضعه .

(١٣) الشجى : المهموم ، والخلى : الخالى من الهموم .

ظلم — لا تلد الحيَّة إلا حية — كل مُجْرٍ فى الحلاء يُسَرُّ[١] — قبل الرِّماء تُمْلأ الكنائن[٢] .

وهناك جماعة اشتهرت فى العصر الجاهلى بكثرة ما انزلق على ألسنتها من هذه الأمثال ، ومن قدمائهم لُقْمان عاد ؛ تلك القبيلة اليمنية البائدة التى كانت تسكن الأحقاف ، فإننا نجد ذكراه واضحة على ألسنة الشعراء[٣] ، يقول الجاحظ : « كانت العرب تعظم شأنه فى النباهة والقدر وفى العلم والحُكم وفى اللسان والحلم »[٤] ويقول أيضاً : « من القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنُّكراء لقمان »[٥] . وهو غير لقمان الحكيم الذى جاء فى القرآن الكريم[٦] . ويذهب كاتب مادة لقمان فى دائرة المعارف الإسلامية إلى أن شخصية لقمان مرت بثلاث مراحل : (ا) مرحلة جاهلية وفيها يتراءى لنا لقمان عاد المعمَّر صاحب قصة النسور ، إذ يزعمون أنه عاش عمر سبعة نسور ، كلما هلك نسر خَلَفَ من بعده نسر ، وكان آخرها لُبَداً الذى ذكره الشعراء كثيراً فى أشعارهم[٧] . (ب) ومرحلة قرآنية ، وفيها يتراءى لنا لقمان صاحب السورة الخاصة به . وقد ربط المفسرون بين لقمان هذا وبين بلعام حكيم بنى إسرائيل ، فقالوا إنه لقمان بن باعور بن ناحور بن تارخ ، وهو نفس نسب بلعام[٨] . (ح) ثم مرحلة متأخرة ، وهى مرحلة نُسج فيها حول لقمان قَصص كثير على نحو ما نجد فى كتاب « أمثال لقمان » وهو مكتوب بأسلوب ركيك ، يغلب عليه الابتذال .

---

(١) المجرى : الذى يجرى فرسه . يضرب مثلا للرجل يحمد بعض خلاله ولا يشعر بفضائل غيره .

(٢) الكنائن : جمع كنانة ، وهى جعبة السهام .

(٣) البيان والتبيين (طبعة الحلبى) ١/١٨٣ — ١٨٩ ، ٣/٣٠٤ .

(٤) البيان والتبيين ١/١٨٤ .

(٥) نفس المصدر ١/٣٦٥ .

(٦) انظر البيان والتبيين ١/١٨٤ وراجع تفسير أبى حيان (طبع مطبعة السعادة) ٧/١٨٦ وقصص الأنبياء للثعلبى (طبعة القاهرة) ٣٤٠ وخزانة الأدب للبغدادى (طبع بولاق) ٢/٧٧ .

(٧) انظر كتاب المعمرين للسجستانى (طبع مطبعة السعادة) ص ٣ وحياة الحيوان للدميرى (طبع المطبعة الخيرية) ٢/٣٠٦ .

(٨) راجع الثعلبى ٣٤٠ وتفسير أبى حيان ٧/١٨٦ .

ولا نستطيع أن نسلم بما تقوله دائرة المعارف الإسلامية إلا إذا سلمنا بأن لقمان عاد هو نفس لقمان المذكور فى القرآن ، وليس بين أيدينا ما يثبت ذلك ، بل على العكس نرى علماء العرب يفرقون بينهما دائماً . وقد روت كتب الأمثال عن الأول بعض أمثاله[١] ، بينما روى الإمام مالك فى كتابه « الموطأ » بعض أمثال لقمان الحكيم .

وممن عُرف بكثرة الحكم والأمثال فى الجاهلية أكثم بن صيفيّ التميمى[٢] ، ومما ينسَب إليه من الحكم : تباعدوا فى الديار تقاربوا فى المودة — ليس من العدل سرعة العَدْل — لو أنصف المظلوم لم يبق فينا ملوم. ومن أشهر حكمائهم عامر بن الظَّرِب[٣] ، وكان حَكَماً للعرب تحتكم إليه[٤] ، وافتخر به ذو الإصبع العَدْوانى فى بعض شعره[٥] ، ولا يكاد يوجد فى العصر الجاهلى سيد مشهور أو خطيب معروف إلا وتضاف إليه جملة من الحكم والأمثال .

٣

الصنعة فى الأمثال الجاهلية

من يُنْعِم النظر فى الأمثال الجاهلية يجد طائفة منها تُوفِّر لها ضروب من القيم التصويرية والموسيقية ، ففيها أحياناً تشبيه واستعارة وكناية وتمثيل ، وفيها أحياناً أخرى صقل وسجع وتنميق . ونحن نصطلح على تسمية هذه القيم الفنية التى تقابلنا فى نصوص الأدب الجاهلى نثره وشعره باسم الصَّنْعة . وقد تسربت إلى الأمثال بعض هذه القيم التى كانت تشيع فى نثر الجاهليين وشعرهم . وليس معنى ذلك أنهم حققوا لأمثالهم جميعاً ضروباً مختلفة من هذه القيم ، فذلك إنما يظهر فى القلة القليلة ، أما الكثرة فمغسولة من كل فن وبيان ، ومرجع ذلك

---

(١) انظر مجمع الأمثال للميدانى ١/٢٣، ٥٦ الكتب العربية الكبرى) ٤/١٥٥ .
(٢) راجع مجمع الأمثال ٢/١٤٥ وجمهرة الأمثال للعسكرى على هامشه ١/١٢٠ وشرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة (طبع مطبعة دار (٣) انظر مجمع الأمثال ١/٢١١، ٢/١٨٣
(٤) البيان والتبيين ٣/٣٨ .
(٥) أغانى (طبع دار الكتب) ٣/٩٠ .

إلى أن الأمثال تجرى فى لغة التخاطب وأحاديث الناس اليومية العادية ، وقلما نمَّقَ أصحاب هذه الأحاديث لغتهم أو حاولوا أن يوفروا لها ضروباً من الجمال الفنى البديع . ومن ثَمَّ كان كثير من الأمثال الجاهلية يخلو خلواً تامًّا من المهارة البيانية ، وقد مر بنا أن طائفة منها تخرج على الأصول الصرفية والنحوية ، ومن أجل ذلك قالوا : إنه يجوز فيها من الحذف والضرورات ما لا يجوز فى سائر الكلام[١] .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الأصل فى الأمثال أن لا تكون مصقولة ولا مصنوعة ، لأنها من لغة الشعب ، وقلما نمق الشعب فى لغته ، غير أنه كثيراً ما تصدر الأمثال عن الطبقة الراقية فى الأمة : طبقة الشعراء والخطباء ، فتحقق لها هذه الطبقة ضروباً من عنايتها العامة بفنها . وهذا هو مصدر الاختلاط فى الحكم على الأمثال ، فبينما نجد أمثالا غير مصقولة نجد أخرى تفنن أصحابها فى صوغها وإخراجها فى أسلوب بليغ على شاكلة تلك الأمثال :

أنْقَى من مرآة الغريبة — كالمستجير من الرَّمْضاء[٢] بالنار — إن البغاث بأرضنا يَسْتَنْسِرُ[٣] — وراءَ الأكمة ما وراءها — حلَبَ الدهرَ أشْطُرَه[٤] — يخْبِط خبط عشواء[٥] — تطلب أثراً بعد عَيْن[٦] — فى الجَرِيرة تشترك العشيرة[٧] عند الصباح يحمد القوم السُّرى[٨] — تحت الرَّغْوَة اللبن[٩] الصريح — هُدْنة على دَخَن[١٠] — حال الجَرِيض دون القريض[١١] — رُبَّ صَلَف تحت الراعدة[١٢] وقد يأتيك بالأخبار من لم تزوِّد[١٣] — استَنْوَق الجمل[١٤] — كذى العُرَّ يُكْوَى

---

(١) المزهر للسيوطى ١/٤٨٧ .

(٢) الرمضاء : الأرض شديدة الحرارة .

(٣) البغاث : ضعاف الطير . يضرب مثلا للشخص يكون ضعيفاً ثم يقوى كالنسور فى عالم الطير .

(٤) الأشطر : جمع شطر ، وهى أخلاف الناقة . يضرب مثلا لمن عرك الدهر .

(٥) العشواء : الناقة ضعيفة البصر . يضرب مثلا فى التعثر .

(٦) يضرب فى فوت الحاجة .

(٧) الجريرة : الجناية .

(٨) السرى : السير ليلا .

(٩) الصريح : الخالص .

(١٠) دخن : حقد .

(١١) الجريض : غصص الموت ، والقريض الشعر .

(١٢) الراعدة : السحابة ، والصلف : قلة الخير والمطر . يضرب مثلا فى البخل مع السعة .

(١٣) تزود : تعطه الزاد .

(١٤) استنوق : أصبح ذاقة . يضرب مثلا لمن يظن أن فيه شجاعة ثم يظهر جبنه ، وكذلك لمن يظن أن عنده رأياً ويظهر عجزه .

غيره وهو راتع[١] — لا تكن رَطْباً فتُعْصَرُ ولا يابساً فتُكسر — لا تكن كالعَنْز تبحث عن المُدْية — لو ذات سِوارٍ لطمتنى[٢] — المكثار كحاطب الليل[٣] — المنيَّة ولا الدنيَّة[٤] .

وما من ريب فى أن هذه الأمثال تستحوذ على ضروب من الجمال الفنى يرجع بعضها إلى اختيار ألفاظها وصيغها ويرجع بعضها الآخر إلى ما تعتمد عليه من تصوير أو سجع وتوقيع . وهذا هو معنى ما نذهب إليه من أن الأمثال الجاهلية تحتوى فى بعض جوانبها آثاراً من الصنعة ، ولعل ذلك ما جعل الفارابى يقول إنها من أبلغ الحكمة[٥] ، ويقول ابن المقفع إنها آنق للسمع[٦] ، بينما يقول النظّام إنها «نهاية البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية»[٧] .

وطبيعى أن تظهر الصنعة فى بعض الأمثال الجاهلية ، فقد كان العرب حينئذ مشغوفين بالبيان والبلاغة ، وصوَّر القرآن الكريم فيهم هذا الجانب ، فقال جل شأنه : « ولتعرفنَّهم فى لَحْن القول) وقال : (وإن يقولوا تَسْمَع لقولهم) وقال : (ومن الناس من يُعْجِبُك قولُه فى الحياة الدنيا) .

وفى جميع آثار نثرهم وشعرهم نجد آثار هذه الرغبة الملحة فى استمالتهم الأسماع بجمال منطقهم وخلابة ألسنتهم ، وقد دفعتهم تلك الرغبة دفعاً إلى تحسين كلامهم وتحبير ألفاظهم حتى فى أمثالهم ، وهيأ لذلك أن كثيراً من بلغائهم وفصحائهم أسهموا فى صناعة هذه الأمثال ، فكان طبيعيًّا أن تظهر فيها خصائصهم الفنية التى يستظهرونها فى بيانهم وتدبيج عباراتهم حين ينظمون أو يخطبون .

---

(١) العر : الجرب ، وكانوا يداوونه فى إبلهم بالكى .

(٢) ذات السوار : المرأة . يضربه الرجل الشريف فى ظلم الخسيس له .

(٣) المكثار : المكثر من الكلام ، وشبه بحاطب الليل لأنه ربما نهشته حية أو عقرب .

(٤) الدنية : العمل الدنىء .

(٥) المزهر ١/٤٨٦ .

(٦) الأدب الصغير بتحقيق أحمد زكى ص ٢٨ .

(٧) مجمع الأمثال ١/٥ .

٤

الخطابة الجاهلية

كان للخطابة فى العصر الجاهلى شأن عظيم ، إذ كانوا يستخدمونها فى منافراتهم ومفاخراتهم[١] ، وفى النصح والإرشاد[٢] وفى الحث على قتال الأعداء[٣] وفى الدعوة إلى السلم وحَقْن الدماء[٤] وفى مناسباتهم الاجتماعية المختلفة كالزواج والإصهار إلى الأشراف[٥] ، وكانوا يخطبون فى الأسواق والمحافل العظام والوفادة على الملوك والأمراء ، متحدثين عن مفاخر قبائلهم ومحامدها ، ونحن نعرف قصة وفد تميم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وما كان من قيام عُطارد بن حاجب بن زُرارة خطيباً بين يديه[٦] . ويقول أوس بن حَجَر فى رثاء فَضالة بن كَلَدَة[٧] :

أبا دُلَيْجةَ من يكفى العشيرة إذ ... أمسوا من الحَطْبِ فى نار وبَلْبالِ
أم من يكون خطيبَ القوم إذ حفَلوا ... لدى الملوك ذوى أيْدٍ وأفضال[٨]

ويقول فيه أيضاً[٩] :

ألهفاً على حُسْنِ آلائه ... على الجابر الحىّ والحارِبِ[١٠]

---

(١) انظر البيان والتبيين فى مواضع متفرقة مثل ١/١٠٩ ، ١/١٩٠ ، ٢/٢٧٢ والأغانى ١٥/٥١ .
(٢) البيان والتبيين فى مواضع متفرقة مثل ١/٤٠١ والمزهر للسيوطى ١/٥٠١ .
(٣) انظر الأمالى لأبى على القالى ١/٩٢ الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/١٣٧ .
(٤) البيان والتبيين ١/٣٤٨ .
(٥) انظر البيان والتبيين ٢/٧٧ وراجع ١/١١٨ ، ١/١٣٤ ، ٣/٦ .
(٦) تاريخ الطبرى : القسم الأول ص١٧١١ والأغانى (طبع دار الكتب) ٤/١٤٦ والبيان والتبيين ١/٥٣ .
(٧) نقد الشعر لقدامة (طبعة الجوائب) ص ٣٥ وديوان أوس (طبع فيينا) ص ٢٢ .
(٨) أيد : قوة .
(٩) البيان والتبيين ١/١٨١ .
(١٠) الحارب : المحارب الغانم .

ورقبتَه جُشَمـــاتِ الملـــو ك بين السُّرادق والحاجبِ[١]
ويكفى المقـــالةَ أهلَ الدّحـــا ل غيرَ مَعيبٍ ولا عائبِ[٢]

ورقبته : انتظاره إذن الملوك ، وقد جعله بين السرادق والحاجب ليدل على مكانه من الملك .

ودلائلُ مختلفة تدل على أن منزلة الخطيب فى الجاهلية كانت فوق منزلة الشاعر ، ويقول أبو عمرو بن العلاء : « كان الشاعر فى الجاهلية يقدَّم على الخطيب ، لفَرْط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم ، ويهوِّل على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيِّب مَنْ فرسانهم ، ويخوِّف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مَكْسَبَةً ، ورحلوا إلى السوقة ، وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر »[٣] وتابعه الجاحظ يقول : « كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم إليه أحوجُ لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم . فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر »[٤] .

وواضح أن الجاحظ يجعل كثرة الشعر والشعراء وحدها هى السبب فى تقدم الخطباء ، أما أبو عمرو فيرد ذلك إلى أن هذه الكثرة استتبعت تحول الشعراء إلى التكسب بشعرهم ومسارعتهم إلى الطعن فى الأعراض . ونظن ظنًّا أن تفوق الخطيب على الشاعر فى الجاهلية يرجع إلى طائفة متشابكة من الأسباب منها أن الخطابة كانت من لوازم سادتهم الذين يتكلمون باسمهم فى المواسم والمحافل العظام ، ومن أجل ذلك كانت تقترن بها الحكمةُ والشرف والرياسة[٥] ، كما تقترن بها الشجاعة ، ويتضح ذلك فى مراثيهم ومدائحهم لسادتهم على نحو ماتقدم فى رثاء أوس بن حجر لفضالة بن كلدة ، ويقول الأعشى فى مديح قوم[٦] :

---

(١) جشمات الملوك : كبارهم وعظامهم .
(٢) الدحال : الدهاء والمراوغة .
(٣) البيان والتبيين ١/٢٤١ .
(٤) نفس المصدر ٤/٨٣ .
(٥) نفس المصدر ١/٣٦٢ وفى مواضع متفرقة .
(٦) نفس المصدر ١/١٢٤ والصلاق : جهير الصوت .

فيهم الخصْبُ والسماحـــةُ والنجْ ... دَةُ جَمْعا والخاطب الصَّـــلاقُ

ويقول زَبَّان بن سيَّار الغزارى[١] :

ولسنا كأقـــوامٍ أجَدُّوا رياســـة ... يُرَى مالُهـــا ولا يحسُّ فَعالُها
يُريغون فى الخِصْب الأمور، ونفعُهم ... قليلٌ إذا الأموالُ طال هُزالها[٢]
وقلنا بلا عِيٍّ وسُسنـــا بطاقـــةٍ ... إذا النار نارُ الحرب طال اشتعالها

ويقول عامر المحاربى[٣] :

أولئك قـــومى إن يَلُذْ ببيوتهم ... أخو حَدَثٍ يوماً فلن يُتَهَضَّما[٤]
وكم فيهمُ من سَيِّدٍ ذى مهابةٍ ... يُهاب إذا مارائدُ الحرب أضْرما[٥]
وهم يَدْعمون القول فى كل موطنٍ ... بكل خطيبٍ يترك القوم كُظَّما[٦]
يقوم فلا يَعْيا الكلامَ خطيبُنا ... إذا الكرْبُ أنسى الحِبْسَ أن يتكلما

ويضاف إلى هذا السبب فى تفوق الخطيب على الشاعر فى الجاهلية اتساع وظيفته ، إذ كان يفاخر وينافر عن قومه فيشترك بذلك مع الشاعر كما يشترك معه فى الحض على القتال ، ثم ينفرد بمواقف خاصة به كالوفادة على الملوك وكالنصح والإرشاد ، وخطبهم فى الإملاك والزواج مشهورة . ومن أهم المواقف التى كان ينفرد بها أنه كان يدعو إلى السلم وأن تضع الحرب بين القبائل المتخاصمة أوزارها ، أما الشاعر فلم يكن يدعو إلا إلى الأخذ بالثأر وإشعال نار الحرب ، ولعل ذلك ما جعل ربيعة بن مَقْروم الضبى يقول[٨] :

ومتى تقمْ عند اجتماع عشيرةٍ ... خطباؤنا بين العشيرة يُفْصَلِ

ويقول أبو زُبيْد الطائى[٩] :

وخطيب إذا تمعَّرتِ الأو ... جهُ يوماً فى مأقطٍ مشهود

---

(١) البيان والتبيين ١/٤ .
(٢) يريغون : يدبرون ، والأموال هنا : الإبل وما يعلمه .
(٣) المفضليات ، القصيدة ٩١ البيت ١٨
(٤) يتهضم : ينتقص .
(٥) أضرم النار : أشعلها ، وكانوا إذا توقعوا حرباً وأرادوا الاجتماع أوقدوا ناراً على جبلهم .
(٦) كظما : جمع كاظم ، وهو الساكت غيظاً .
(٧) الحبس : اللئيم المنقطع .
(٨) أغانى (طبع الساسى) ١٩/٩٣ .
(٩) البيان والتبيين ١/١٧٦ وتمعرت الوجوه تغيرت واصفرت . والمأقط : موضع القتال .

ويقول بشر بن أبي خازم [١] :

وكنا إذا قُلنا : هَوازنُ أقبلى إلى الرُّشْد لم يأت السدادَ خطيبُها

وتتردَّد فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ وغيره من كتب الأدب أسماءُ طائفة كبيرة من خطباء الجاهلية الذين اشتهروا بالفصاحة ووضوح الدلالة والبيان عما فى أنفسهم ، مما جعل الأسماع والقلوب تهش إليهم ، ويعظم فى الناس خطرهم ، ويشيع فى الآفاق ذكرهم ، وكانوا ينتشرون فى الجزيرة بمكة والمدينة وما وراءهما من قبائل البادية ، أما مكة فقد كانت بها دار الندوة ، وهى أشبه بمجلس شيوخ مصغر ، كان يجتمع فيها سادة العشائر القرشية يتشاورون فى أمورهم وفى أثناء ذلك يخطبون ويتحاورون [٢] ، ومن خطبائهم المفوهين عتبة ابن ربيعة ، وهو خطيب قريش يوم بدر ، ومن خطبائها سهيل بن عمرو الأعلم وهو الذى قال فيه عمر للنبى صلى الله عليه وسلم : « يا رسول الله انزَعْ ثَنِيَّتَيْه السُّفْلَيَيْن حتى يَدْلَع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً ، فقال الرسول عليه السلام : لا أمثِّل فيمثل الله بى ، وإن كنت نبيًّا ، دَعْه يا عمر فعسى أن يقوم مقاماً تحمده » [٣] . وقد أسلم وحسن إسلامه ، وكانت له مواقف محمودة . ولقريش أيضاً خطباء كان ينفر إليهم العرب أمثال هاشم وأمية [٤] ونُفَيْل ابن عبد العُزَّى جد عمر بن الخطاب وإليه نفر عبد المطلب بن هاشم وحرب ابن أمية [٥] . وأما المدينة فذكر الجاحظ من خطبائها قيس بن الشماس وثابت ابنه خطيب الرسول صلى الله عليه وسلم وسعد بن الربيع وهو الذى اعترضت ابنتُه الرسول صلوات الله عليه ، فقال لها من أنت ؟ فقالت : ابنة الخطيب النقيب الشهيد سعد بن الربيع [٦] .

---

(١) المفضليات ، القصيدة ٩٦ البيت رقم ٩ .

(٢) السيرة النبوية (طبعة الحلبى) ٢/١٢٤

(٣) البيان والتبيين ١/٣١٧ والثنيتان : الأضراس فى مقدم الفم .

(٤) شرح النقائض لأبى عبيدة (طبعة بيفن) ١/٢٢٤ .

(٥) تاريخ الطبرى : القسم الأول ص ١٠٩١ .

(٦) انظر البيان والتبيين ١/٣٥٨ — ٣٦٠

وإذا تركنا مكة والمدينة إلى القبائل المنبطحة فى البادية وجدنا ممن اشتهروا فيها بالخطابة ابن عمار الطائى وهو خطيب مذحج كلها[١] وهانئ بن قبيصة خطيب شيبان يوم ذى قار[٢] وزهير بن جناب خطيب كلب وقضاعة[٣] وربيعة بن حُذار خطيب بنى أسد[٤] وإليه احتكم الزبرقان بن بدر والمخبَّل السعدى وعبدة بن الطبيب وعمرو بن الأهتم أيهم أشعر[٥] . ومن الخطباء المشهورين فى القبائل أيضاً عامر بن الظرب[٦] أحد حكام العرب فى الجاهلية ، ومن كانوا يقضون بينهم فى خصوماتهم[٧] .

وممن اشتهر باللسن والخطابة والشعر لبيد بن ربيعة العامرى ، ومن قوله[٨] :

وأخلفُ قُسًّا ليتنى ولو انّنى وأعْيى على لقمان حكمَ التدبُّر

ومن قوله أيضاً[٩] :

وأبيضَ يَجْتاب الخُروقَ على الوَجَى خطيباً إذا التفَّ المجامعُ فَيْصلا

ومن خطبائهم هرم بن قُطْبة الفزارى[١٠] ، وهو صاحب المنافرة المشهورة بين علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطُّفَيْل ، وقد رآه عمر بن الخطاب يوماً فى المسجد ، فقال له : « أرأيت لو تنافرا إليك — يعنى علقمة وعامراً — أيهما كنت تنفر ، فقال : يا أمير المؤمنين لو قلت فيهما كلمة لأعدتها جذعة ، فقال عمر : لهذا العقل تحاكمت إليك العرب »[١١] .

ومن الخطباء البلغاء عمرو بن كلثوم خطيب تغلب[١٢] . وهَيْذان بن شيخ

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٤٩ .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ٢٠/١٣٧ .
(٣) نفس المصدر ٢١/٦٥ .
(٤) نفس المصدر ١٠/٦١ والبيان والتبيين ١/٣٦٥ .
(٥) أغانى ١٢/٤٠ ، ٢١/١١٣ .
(٦) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣/٩٠ وانظر السيرة النبوية ١/١٢٩ والبيان والتبيين ١/٣٦٥ والمعمرين ٤٤ .
(٧) أغانى ٣/٩٠ والسيرة النبوية ١/١٢٨
(٨) البيان والتبيين ١/١٨٩ .
(٩) نفس المصدر ١/٢٦٦ ويجتاب : يقطع ، الخروق : الفلوات ، الوجى : الحفد .
(١٠) البيان والتبيين ١/٣٦٥ .
(١١) البيان والتبيين ١/٢٣٧ .
(١٢) نفس المصدر ٢/١٤١ .

الذى قال فيه الرسول عليه السلام : رب خطيب من عَبْس[١] ، والعُشَراء ابن جابر، وخويلد بن عمرو خطيب يوم الفِجار[٢] وقيس بن خارجة بن سنان ويقال إنه خطب فى حرب داحس والغَبْراء يوماً إلى الليل[٣] وكل هؤلاء من غطفان . ومن الخطباء حنظلة بن ضرار خطيب بنى ضبة ، وقد طال عمره حتى أدرك يوم الجمل[٤] . ولم تشتهر قبيلة بالخطابة كما اشتهرت إياد وتميم ، ومن إياد قُسُّ بن ساعدة الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « رأيته بسوق عكاظ على جبل أحمر ، وهو يخطب فى الناس »[٥] . ومن خطباء تميم المفوَّهين ضمرة بن ضَمْرة[٦] وأكثم بن صيفى[٧] وقيس بن عاصم[٨] وعطارد ابن حاجب بن زرارة خطيب وفد تميم بين يدى الرسول ، وعمرو بن الأهتم المِنْقَرى ، ولم يكن فى بادية العرب فى زمانه أخطب منه[٩] . وما من ريب فى أن هذه الكثرة من الخطباء — ووراءهم كثير لم نذكرهم — تدل دلالة بينة على ما كانت عليه الخطابة الجاهلية من رقى وازدهار .

وكان للخطباء حينئذ سُنَنٌ خاصة فى أداء خطابتهم ، منها أنهم كانوا يخطبون على رواحلهم فى المواسم العظام والمجامع الكبار[١٠] ، وكان من عادتهم لَوْثُ العمائم على رءوسهم والإشارة فى أثناء خطابتهم بالعصىّ والمخاصر والقَنَا والقُضْبان والقِسِىّ[١١] . وفى ذلك يقول لبيد[١٢] :

ما إن أهابُ إذا السُّرادِقُ غَمَّه قَرَعُ القِسِىِّ وأرعش الرِّعْديدُ

وقد حملت الشعوبيةُ حملة شَعْواء على العرب لاتخاذهم فى خطابتهم

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٧٣ .
(٢) نفس المصدر ١/٣٥٠ — ٣٥١ .
(٣) نفس المصدر ١/١١٦ وما بعدها .
(٤) نفس المصدر ١/٣٤١ .
(٥) البيان والتبيين ١/٣٠٨ — ٣٠٩ .
(٦) جمهرة الأمثال للعسكرى ١/١٨٦ .
(٧) البيان والتبيين ١/٣٦٥ والأغانى (طبعة الساسى) ١٥/٧٠ .
(٨) البيان والتبيين ١/٥٣ .
(٩) البيان والتبيين ١/٣٥٥ .
(١٠) نفس المصدر ٣/٧ .
(١١) انظر أوائل الجزء الثالث من البيان والتبيين .
(١٢) البيان والتبيين ١/٣٧٢ ، ٣/٩ . وغمه : علاه ، وكثر فيه .

المخاصرَ والعصيَّ ووَصْل أيمانهم بالقُضْبان والقِسيِّ ، وردَّ عليهم الجاحظ ردًّا طويلا مفحماً فى فاتحة الجزء الثالث من كتاب البيان والتبيين . وفى مواضع كثيرة من هذا الكتاب نرى العرب يمدحون جهارة الصوت وشدته ويعيبون ضيقه ودقته كما يعيبون على الخطيب أن يعترضه البُهْر والارتعاش والرعدة أو يعتريه شيء من الحَصَر والعِيِّ ، يقول أبو العيال الهُذَلى[1] :

ولا حَصِرٌ بخطبته إذا ما عَزَّتِ الخُطَبُ

وكانوا يكرهون أن يمسَّ الخطيب ذقنه وسِباله وشواربه ، يقول مَعْن بن أوس المُزَنى فى بعض هجائه[2] :

إذا اجتمع القبائلُ جئت رِدْفاً وراء الماسحين لك السِّبالا
فلا تُعْطى عصًا الخطباءِ فيهم وقد تُكْفَى المقادةَ والمقالا

وإذا كانوا قد عابوا ذلك فى الخطيب فقد مدحوا فيه — على نحو ما يلاحظ ذلك الجاحظ فى بيانه — شدة العارضة وظهور الحجة وثبات الجَنان وكثرة الرِّيق والعلوّ على الخصوم فى مضايق الكلام ومآزق الخصام .

٥

الصنعة فى الخطابة الجاهلية

من الصفات التى تميِّزُ عرب الجاهلية أنهم كانوا يحبون البيان والطلاقة والتحبير والبلاغة ، ودفعهم ذلك إلى الاحتفال بخطابتهم احتفالا شديداً ، لا من حيث الصقل وتجديد الألفاظ فحسب ، بل أيضاً من حيث مخارج الكلم ، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يتزيدون فى جهارة الأصوات كما كانوا ينتحلون سعة الأشداق وهَدَل الشفاه[3] ، حتى إن فريقاً منهم كانوا يتخلَّلُون كلامهم بألسنتهم تخلل البقرةِ الكلأَ بلسانها[4] ، ومن لم يصنع ذلك تمد

(١) البيان والتبيين ١/٣ .
(٢) نفس المصدر ١/٣٧٢ والسبال : مقدم اللحية ، وهو يهجو صاحبه بأنه ليس رئيساً ولا خطيباً .
(٣) البيان والتبيين ١/١٣ — ١٤ .
(٤) البيان والتبيين ١/٢٧١ .

إلى ضروب من التقعير والتمطيط والجَهْورة والتفخيم[١] .

وليس بين أيدينا نصوص وثيقة نستطيع بها أن نحكم أحكاماً دقيقة على خطابتهم وصناعتهم فيها ، وحقًّا نجد بعض خطب مبثوثة فى الطبرى والأغانى والأمالى والعقد الفريد ، ولكن هذه الخطب جميعاً ينبغى أن نتلقاها بشىء من الاحتراس ، وخاصة ما رواه الكتاب الأخير من خطب طويلة لهم فى وفودهم على كسرى وغير كسرى ، فإن الانتحال ظاهر فيها . أما الخطب الأخرى فأكبر الظن أن الرواة جمعوا بعض شظايا وقطع للقوم ، وزادوا عليها من خيالهم ، ومن ثَمَّ لا يصح الاستدلال بهذه الخطب جميعاً على أنها تمثِّل الخطابة الجاهلية تمثيلا صحيحاً . وهذا الجاحظ على كثرة ما رَوَى فى بيانه من خطب لم يستطع الاستشهاد للجاهليين إلا بجمل وصيغ متفرقة لا تكوِّن خطبة كاملة .

ومهما يكن فنحن نؤمن بأن أكثر ما يُرْوَى من الخطابة الجاهلية لا يصح الاطمئنان إليه من الوجهة التاريخية لطول المسافة بين روايته وكتابته ، وإن كان ذلك لا يمنعنا من تسجيل بعض الظواهر والخصائص لتلك الخطابة ، فإن من يرجع إلى ما رُوى منها فى كتب الأدب والتاريخ يلاحظ أن أغلب ما رُوى من خطب القوم روى مسجوعاً . ويؤكد الجاحظ أن النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى روى خطبة قُسّ بن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ ، ويقول إنه إسناد تعجز عنه الأمانى وتنقطع دونه الآمال ، ومع ذلك لم يستطع روايتها كاملة إنما روى أجزاء منها ، هى قوله :

« أيها الناس اسمعوا وعوا. من عاش ماتَ ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . آياتٌ محكمات ، مطرٌ ونبات ، وآباء وأمهات ، وذاهب وآت ، ضوءٌ وظلام ، وبِرٌّ وآثام ، لباسٌ ومركب ، ومطعم ومشرب ، ونجوم تمور[٢] وبحور لا تغور ، وسقفٌ مرفوع ، ومِهاد موضوع ، وليل داجٍ ، وسماء ذات أبراج. مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرَضُوا فأقاموا ، أم حُبِسوا فناموا » .

---

(١) راجع البيان والتبيين فى مواضع متفرقة (٢) تمور : تذهب وتجىء . وانظر ١ / ١٢٠ وما بعدها .

وروى له الجاحظ أيضاً قطعة من خطبة أخرى على هذا النحو : « يا معشر إياد ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والأجداد ، أين المعروف الذى لم يشكر ، والظلم الذى لم يُنكَر »[1] .

وواضح أن هذه القطع من خطابة قس بُنيت على السجع . وقد روى الطبرى كلمة لنُفَيل بن عبد العُزّى فى منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية ، وهى مسجوعة[2] كما روى أبو عبيدة فى النقائض منافرة جرير بن عبد الله البجلى وخالد بن أرطاة الكلبى إلى الأقرع بن حابس ، وهى مسجوعة أيضاً[3] ، وبُنيت على السجع كذلك منافرة عَلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل[4] .

ولم نَسُقْ ذلك لنسلِّم بصحة هذه المرويات من المنافرات وصحة صياغتها ، ولكنا سُقناه لتخلص منه إلى أنه ثبت عند من كانوا يروون المنافرات والخطب الجاهلية أنها كانت تعتمد اعتماداً شديداً على السجع . ويؤيد ذلك قول الجاحظ إن « ضَمْرة بن ضمرة وهرم بن قُطْبة والأقرع بن حابس ونُفَيْل بن عبد العُزّى كانوا يحكمون وينفّرون بالأسجاع ، وكذلك ربيعة بن حُذار »[5] . وقد اشتمل هذا النص على خطباء من تميم وأسد وفزارة وقريش ، وفى ذلك ما يدل على شيوع السجع فى الخطابة الجاهلية . وما من شك فى أن صناعة السجع تحتاج إلى قيم موسيقية كثيرة ، حتى تتم معادلاته الصوتية وموازناته الإيقاعية . وكانوا يدمجون كثيراً من الصور والتشبيهات والاستعارات فى هذا السجع كما كانوا يدمجون كثيراً من التجويد والتحبير ، ويَشْهد لهم الجاحظ بما كانوا يعانونه فى خطبهم وخاصة الطويلة منها إذ يقول : « لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم فى طوال القصائد وفى صنعة طوال الخطب . . . وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأى فى معاظم التدبير ومهمات الأمور مَيَّثُوه[6] فى صدورهم ، وقيلوه على أنفسهم ، فإذا قومه

---

(١) انظر هذه القطع من خطابة قس فى البيان والتبيين ١/٣٠٨ — ٣٠٩ .

(٢) الطبرى ، القسم الأول ص ١٠٩١ .

(٣) النقائض لأبى عبيدة ١/١٤١ .

(٤) أغانى (طبعة الساسى) ١٥/١٥ .

(٥) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .

(٦) ميثوه : ذللوه وأعدوه .

الثقاف وأدْخل الكِير وقام على الخلاص أبرزوه محكّكاً منَقّحاً ومصفى من الأدناس مهذباً »[١] وقد عبّر العرب أنفسهم فى شعرهم بصور مختلفة عن مدى تجويدهم فى خطابتهم . وانظرْ إلى لبيد يقول لهرم بن قُطْبة فى حكومته بين علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطفيل[٢] :

إنك قد أوتيتَ حكماً معجبا فطبِّق المَفْصِل واغنَمْ طيِّباً

يقول له : احكم بين الرجلين بكلمة فصل تفصل بها بين الحق والباطل كما يفصل الجزار الحاذق مفصل العظمين .

ويقول لبيد عن نفسه مدلا ببيانه وبراعته وما أوتى من حسن الجدل والعلو على خصومه[٣] :

ومقامٍ ضَيِّقٍ فرَّجْتُه ببيانٍ ولسانٍ وجدَلْ

ويقول قيس بن عاصم المنقرى التميمى واصفاً ما فيه وفى قومه من الخطابة والفصاحة وإحسان هذا الجانب من البيان والبلاغة[٤] :

إنى امرؤٌ لا يعْتَرى خُلُقِى دَنَسٌ يفنِّدُه ولا أفْنُ[٥]
من مِنْقَرٍ فى بيت مكرمةٍ والأصل ينبت حوله الغصْنُ
خطباءُ حين يقوم قائلهم بيضُ الوجوه مَصاقعٌ لُسْنُ

وعلى نحو ما وصفوا الخطيب بأنه مِصْقع ولَسِنٌ وصفوه بأنه مِدْرَهٌ ، يقول زهير بن أبى سلمى فى مديح هرم بن سنان[٦] :

ومِدْرَهُ حَرْبٍ حَمْيُها يُتَّقَى بِه شديدُ الرَّجام باللسان وباليَدِ

وواضح أنه يشبِّه ما يُلقيه من لسانه كلاماً بما يلقيه من يده سهاماً .

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٤ .
(٢) نفس المصدر ١/١٠٩ .
(٣) البيان والتبيين ١/٢٦٥ .
(٤) البيان والتبيين ١/٢١٩ .
(٥) يفند : ينقص ويضعف ، والأفن : ضعف الرأى .
(٦) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ٢٢٣ . والمدره : الذى يدافع عن قومه ، الرجام : المراماة فى القتال .

وقد وصفوا اللسان بأنه عَضْبٌ وقاطع وجارح ، كما وصفوا الخطيب بأنه لوْذَعيّ ، يقول شاعرهم [١] :

هو الشجاعُ والخطيب اللّوْذَعِي والفارسُ الحازمُ والشهمُ الأَبِي

ولعل من الطريف أننا نجدهم يصفون خطابتهم بأنها كالوشي المنمق ، ففيها تدبيج وتزيين يشبه ما يجدونه فى الثياب اليمانية الموشاة ، يقول أبو قُرْدُودَة الطائى فى رثاء ابن عمّار خطيب طيئ وقد مات مقتولا [٢] :

يا جفنةً كإزاء الحَوْضِ قد هدموا ومنطقاً مثل وَشْى اليَمْنَة الحِبَرَة [٣]

ويقول فيه أيضاً :

ومنطقٍ خُرِّقَ بالعـواسـلِ لذٌّ كوَشْى اليَمْنَةِ المَراحلِ [٤]

فأبو قردودة يحس فى خطب ابن عمّار ما يحسه فى وشى الحلل المنمقة . وهو إحساس بالغ ، عبَّر به هو وأضرابه عن عنايتهم بخطابتهم ومقدار ما كانوا يحققون لها من مهارة وصنعة . وبلغ من جمال بعض خطبهم أن اقترحوا لها أسماء وإنْ كانوا يحفظونها ويتوارثونها ، لروعة بيانها وجودة فصاحتها وبلاغتها ، يقول الجاحظ : « ومن خطب العرب العجوز ، وهى خطبة لآل رَقَبَة ، ومتى تكلموا فلابد لهم منها أو من بعضها ومنها العذراء ، وهى خطبة قيس بن خارجة فى حرب داحس والغبْرَاء ، سميت بذلك لأنه كان أبا عُذْرها [٥] .

والحق أن خطباء العصر الجاهلى نهضوا بخطابتهم نهضة واسعة ، ولذلك لم يكن غريباً أن يستمع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بعضهم وهو يخطب ، فيقول : « إن من البيان لسحراً » [٦] . ولم يكن هذا البيان الساحر شيئاً خاصًّا

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١١/١٥٠

(٢) انظر فى البيتين التاليين البيان والتبيين ١/٣٤٩ .

(٣) الإزاء فى البيت : مصب الماء فى الحوض ، والحبرة : ضرب من برود اليمن .

(٤) العواسل : الرماح ، المراحل : جمع مرحل وهو ما نقش فيه تصاوير الرحال .

(٥) انظر البيان والتبيين ١/٣٤٨ .

(٦) نفس المصدر ١/٥٣ .

بهذا الخطيب ، بل كان شيئاً عامًّا بين الخطباء ، إذ ذهبوا جميعاً مذهب التجويد والتحبير ، حتى يستميلوا الأسماع ويخلبوا الألباب .

٦

سجع الكهان

كانت عند العرب فى العصر الجاهلى طائفة تدَّعى التنبؤ ومعرفة المغيبات ، وأنها تنطق عن آلهتهم بما سُخِّر لها من الجنّ التى تسترق لها السَّمْع . فتكشف لها الحُجب وما تأتى به ألواح الغد . وكانوا يسمونها الكُهَّان ، وواحدهم يسمى كاهناً ، أما تابعه من الجن فيسمى رَئِيًّا ، وكانوا يفزعون إليهم لاستشارتهم فى الأمور الجُلَّى كإعلان حرب[١] أو قعود عن نصرة أحلاف[٢] أو كشف قَتْل إنسان أو ناقة[٣] أو خلال بنذر من النذور لأربابهم لا يستطيعون أداءه[٤] . وقد يلجأون إليهم للحكم بينهم أو للمنافرة[٥] ، ممتثلين لأحكامهم فهى لا تنقض ولا ترد ، وقد يطلبون إليهم تعبير رُؤاهم وأحلامهم[٦] . وهم بدورهم قد يتنبئون لأقوامهم بوقوع كارثة أو حدوث غزو[٧] .

ولعل فى ذلك كله ما يدل على أنهم كانوا يتمتعون بنفوذ واسع ، ولم يكن لهذا النفوذ حدود قبلية ، فكثيراً ما يسيطر الكاهن على مجموعة من القبائل بكهانته ، فتصدر عن رأيه ، وقد تتخطى شهرته إقليمه ، فتقصده العرب من أقاليم نائية ، ككثير من كُهَّان اليمن . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن جمهور كهانهم كانوا يمنيين ، وخاصة من يرجع بهم القصاص إلى الحقب الأولى من العصر الجاهلى . ومن أشهرهم سَطيح الذئبى وشِقّ بن مصعب الأنمارى وإليهما

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ٩/٨٤ .
(٢) أغانى ١١/١٤٠ .
(٣) أغانى ١١/١١٨ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/١٦٢ .
(٥) السيرة الحلبية (طبع بولاق) ١/٥ .
(٦) السيرة النبوية ١/١٥ وما بعدها .
(٧) الأمالى للقالى ١/١٢٦ وانظر السيرة النبوية ١/١٥ ، ١/٤٣ ، ١/٢٢١-٢٢٢

فزع نصر بن ربيعة ملك اليمن فى تفسير رؤيا له[١] ، وقد أخرجهما القصّاص ورواة الأخبار من عالم الواقع إلى عالم الخيال ، فقالوا إن سطيحاً لم يكن فيه عظم سوى جمجمته وإن وجهه كان فى صدره ولم يكن له عنق ، ولعله كان أحدب ، أما شق فقالوا إنه كان شِقّ أو نصفَ إنسان له عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة[٢] .

ومن كُهّانهم المشهورين المأمور الحارثى ، وكان من فرسان مَذْحج ، وكانت بأمره تتقدم وتتأخر[٣] ، وخنافر الحميرى ، وكان يزعم أنه دخل الإسلام بمشورة رَئِيّه شصار[٤] ، وعوف بن ربيعة الأسدى ، وهو الذى أشار على قومه بالثورة على حجر بن الحارث الكندى وقَتْله[٥] . وسلمة الخزاعى الذى تنافر إليه هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس فنفّر هاشما[٦] ، وسواد بن قارب الدَّوسى وقد أدرك الإسلام[٧] ، وعُزَّى سلمة وهو أكهنهم جميعاً[٨] . ووُجد بجانب هؤلاء الكهنة بعض نُسوة عُرفن بالتكهن من مثل الشعثاء الكاهنة[٩] ، وزبراء[١٠] ، وكاهنة ذى الخُلَصة[١١] ، والكاهنة السعدية[١٢] والزرقاء[١٣] بنت زهير ، والغيطلة القرشية[١٤] .

وروت كتب الأدب والتاريخ طائفة من أقوال هؤلاء الكهان والكاهنات وخطابتهم ، وكلها تلتزم السجع ، وما نشك فى أن أكثر ما رُوى عنهم مصنوع ، وإن من الخطأ أن يعتمد باحث على تلك المرويات ويظنها صحيحة النسبة إلى من قيلت على ألسنتهم ، لسبب طبيعى ، وهو أنها لم تكن مدونة ولا مكتوبة ،

---

(١) الكامل لابن الأثير (طبع ليدن) ١/٣٠١ والسيرة النبوية ١/١٥ .
(٢) انظر عجائب المخلوقات للقزوينى (طبعة وستنفلد) ١/١٧١ .
(٣) الاشتقاق لابن دريد ٢٦٩ وانظر الأمالى ١/٢٧٦ واسمه فيه المأمون .
(٤) الأمالى ١/١٣٣ .
(٥) أغانى ٩/٨٤ .
(٦) السيرة الحلبية ١/٥ .
(٧) السيرة النبوية ١/٢٢٣ .
(٨) البيان والتبيين ١/٣٥٨ .
(٩) مجمع الأمثال للميدانى ١/٩١ .
(١٠) الأمالى ١/١٢٦ .
(١١) مجمع الأمثال ١/٢٢٣ .
(١٢) نفس المصدر ٢/٥٤ .
(١٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/٨١.
(١٤) سيرة ابن هشام ١/٢٢١ .

ومن الصعب أن تحتفظ بها ذاكرة الرواة نحو قرنين من الزمان أو أكثر ، فلا تبدّل فيها ولا تحرّف ، حتى يخرج العصر العباسى فيدوّنها اللغويون والأخباريون .

على أننا نستطيع بعد أن نرفض مايُرْوَى من أقوالهم وخطبهم أن نعود فنظن ظنًّا أنهم كانوا يسجعون فى خطابتهم ، وإلا لما استقر عند جميع من نحلوهم بعض الأقوال والخطب أنهم كانوا يعتمدون على السجع فى كهانتهم ، ومن ثَمّ صاغوا ما نسبوه إليهم من كلام سجعاً خالصاً . ولعل هذا السجع فى كلامهم هو الذى دفع بعض المشركين من قريش إلى الظن بأن ما يتلوه الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن إنما هو من كلام الكُهّان فقال جل وعز ينقض دعواهم الباطلة : (فذكِّرْ ، فما أنت بنعمة ربك بكاهنٍ) وقال : (إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعرٍ قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهنٍ قليلا ما تذكّرون) . وقد جاء فى الحديث النبوى أن الرسول صلوات الله عليه قَضَى على رجل فى جنين قُتلت أمه بدية ، فقال الرجل : « أ أدى (أأغرم) من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح ولا استهلّ ، أليس مثل ذلك يُطَلّ »[1] ؟ فقال رسول الله عليه السلام : إنما هذا من إخوان الكهان ، من أجل سجعه الذى سجع »[2] وفى رواية أنه قال له : أسجعٌ كسجع الكهان[3] ؟ وفى هذا الحديث أكبر الدلالة وأعظمها على أن الكهان كانوا يستخدمون السجع فى كهانتهم ، ويقول الجاحظ : « كان حازى (كاهن) جُهَينة وشِقّ وسطيح وعُزّى سَلَمة وأشباههم يتكهنون ويحكمون بالأسجاع ، ويَرْوى من سجع عزى سلمة قوله[4] : " والأرض والسماء ، والعُقاب والصَّقْعاء ، واقعةٌ ببَقْعاء ، لقد نفّر المجدُ بنى العُشَراء ، للمجد والسَّناء " »[5] .

---

(١) يطل : يهدر دمه .

(٢) صحيح مسلم (طبعة الآستانة) ٥/١١١ وانظر موطأ مالك (طبع حجر بمصر) ٢/١٩٢ .

(٣) البيان والتبيين ١/٢٨٧ وإعجاز القرآن للباقلانى (طبع مطبعة الإسلام) ص ٣٢ .

(٤) البيان والتبيين ١/٢٨٩ — ٢٩٠ .

(٥) الصقعاء : الشمس ، بقعاء : ما أو موضع ، نفرهم : حكم لهم بالغلبة ، بنو العشراء : عشيرة من فزارة ، السناء : الرفعة .

وإذا صحت هذه الكلمة لعُزَّى سلمة فإنها ترينا أن الكهان كانوا يعتمدون فى كهانتهم على السجع ، كما كانوا يعتمدون على مثل هذه الأقسام والأيمان بالأرض والسماء والطير والشمس وما يتصل بذلك من القمر والنجوم والكواكب والأشجار والرياح وكل ما يظنون أنه يحمل قوى خفية . وأيضاً فإنهم كانوا يعتمدون على الإغراب فى ألفاظهم للإبهام والتأثير فى نفوس السامعين .

وهذه هى نفس السمات العامة التى يمكن أن نستنبطها من خلال النصوص الكثيرة التى رُويت من سجعهم ، ونحن نرى هذه السمات واضحة فى هذه القطعة الصغيرة التى رواها الجاحظ لعزى سلمة ، وهى سمات طبيعية ، إذ كانوا يلجأون إلى الإبهام فى أحاديثهم وأقوالهم ، وكانوا يعتمدون فى هذا الإبهام على الأقسام واللفظ الغريب ليتيح لهم ذلك ما يريدون من الوهم فى أساليبهم ومعانى كلامهم. وأكبر الظن أنهم كانوا يبالغون فى ذلك حتى تَنْبُهم معانيهم وتغمض دلالاتهم ، فيكثر عند السامعين الفهم ، ويكثر الاحتمال والتأويل. ولعلنا لا نُبعد إذا زعمنا أن الكهان كانوا يبنون سجعهم فى كثير من جوانبه على الرمز ، فإن كهانتهم كانت تقتضى أن يختاروا ألفاظاً موهمة توعز بما يريدون دون أن تفصح — فى كثير من أحوالها — عن دلالة بينة ومهما يكن فإن حرفة الكهانة فى هذا العصر أثمرت ضرباً طريفاً من السجع كان يتكئ على الأقسام والأيمان الموهمة والألفاظ الغريبة .

وأكبر الظن أن فيما قدمنا من حديث عن سجع الكهان وخطابة الجاهليين وما كان من أمثالهم ما يدل دلالة صريحة على أن ما سلم لنا من بقايا نثرهم ، إنما هو شظايا متناثرة من صناعة بليغة كانت تستنفد من أصحابها آماداً واسعة من التعب والعناء والجهد والنشاط .